

جناية العلمانية

على «شقائق النعمان»

بقلم / حيدر قفّة*

الأديب الناشئ - وفي محاولته الأولى - يكون غير مستقر الرؤية، والغالبية العظمى من هؤلاء يكون عملهم الأول متصفاً بصفتين:

الأولى: أن فيه شيئاً من تجربته الخاصة، بل ربما في معظمها يتحدث عن نفسه، ذلك لأن محيطه وذاته هما الأقرب إلى إمكاناته الفنية، وليست له المقدرة بعدُ للابتعاد عن ذاته، ومن هنا تكون كتاباته أقرب للمذكرات أو الاعترافات، لكنها تكون مشحونة بالصدق، والعاطفة الجياشة، وإن كانت - على المستوى الفني - دون ذلك.

الثانية: أنه يحاكي السائد في مجتمعه من النماذج الأدبية التي تستهويه، لأنه يعتبرها الحائزة على جواز السفر إلى عالم الأدب والشهرة، وهما عالمان يدغدغان رؤاه وأحلامه، فهو يقلد هذه النماذج ويحاكيها على منوالها بكل إيجابياتها وسلبياتها، ولا يستقل بشخصيته، ويرسم لنفسه خطأً مميّزاً إلا بعد أن يترسخ قدمه، وتعلو قامته، عندها يستطيع أن يجاهر بخطئه أو يتميز بنهجه. وقد يصبح فيما بعد صاحب مدرسة خاصة في هذا الفن من الأدب تخالف السائد المتعارف عليه.

وأديبتنا السيدة سحر ملص واحدة من هؤلاء، لا سيما في مجموعتها الأولى «شقائق النعمان» - التي نحن بصدد دراستها - وقد صدر لها بعد ذلك مجموعات أخرى، لم أطلع عليها بعد، ولذا سيكون حديثي محصوراً في «شقائق النعمان» وحدها.

«شقائق النعمان» مجموعة قصصية تقع في أربع وتسعين صفحة من القطع المتوسط، تحتوي على سبع عشرة قصة قصيرة، تدور كلها حول همّ الأنثوي العام:

طفولة الطفلة، ومعاناة الصبية، وحرقة الشابة في البحث عن زوج أو انتظاره، وحنين المرأة للأمومة، ومعاناة الزوجة لهجر الزوج، وربما تجنح إلى تحميل الرجل وحده مسؤولية هذه المعاناة. والملاحظ أنها في قصصها الأولى (ليلة زفاف، ليل بوذي،

عشاء اللصوص، الهذيان، ليلة حب، السراب، حريق المدينة، اللحظة الحرجة، حصاد العمر) أي إلى ص ٥ كانت قصصها تحمل صدقاً في الإحساس، وعمقاً في المعاناة، فلكأنها بها جزءاً من حياتها أو معاناتها، وإن لم تكن كذلك، فإنها تحمل الكثير منه.

بينما في القصص الأخيرة - أي القسم الثاني من الكتاب - كانت القصص تفوح منها رائحة الصنعة، لا حرارة التجربة، فكأنها قد وضعت لنفسها هدفاً في كل قصة تريد توصيله للقراء، بتعبير آخر، كانت قصصاً وليدة قصد وتعمد؛ لتبلغ رسالة محددة.

ويلاحظ القارئ أيضاً، أن «الليل» قاسم مشترك بين قصص المجموعة كلها، وهذا يقوي الإحساس بالمعاناة لدى النماذج النسائية التي طرحتها، فكما تقول العرب: «الليل أخفى للويل»، وهنا يكون الليل رمزاً للقتامة التي تغلف رؤية المرأة للمستقبل، كما أنه الوعاء الذي يحمل أرقها وهمها وخوفها من المستقبل المجهول.

واستخدام الكاتبة لضمير «المتكلم» في البنية السردية لقصص المجموعة كلها له دلالة خاصة، حيث يقوي الإحساس بصدق التجربة في بعض قصصها، وفي تقمص شخص آخر في قصص مماثلة، هذا من جانب، ومن جانب آخر يدل على قوة شخصية الكاتبة. وهذا الأسلوب في السرد القصصي يمكن القاص من التعمق في نفسية الشخصية؛ حتى يستخرج من مكنونها الداخلي كل الانفعالات.

والسيدة سحر ملص سيدة مسلمة، من بيت طيب، له جذوره الممتدة في التقوى والخوف من الله، وهذا يجعلها دائمة الحنين إلى هذا النمط من السلوك، لكن فترة التفتح على الحياة، والتي تمثل عندها مرحلة الصبا الأولى، كانت في الستينات

(*) باحث وناقد أردني، له عدد من الدراسات الأدبية والبحوث الفكرية.

سيطرة العلمانية على وسائل

الإعلام أُنشأت نماذج فاسدة

تهدم القيم

تُغفل الهمزات في معظم ما كتبت، وتهمل استخدام علامات الترقيم - أو لا تراعي الدقة في استخدامها- مما يوقع القارئ في التباسات كثيرة، فعلى سبيل المثال تقول: «أصل قاعة المسافرين الأخيرة بانتظار ركوب الطائرة في الصالة، وجوه بشرية مختلفة عرب وأجانب ص ٩» فوضع الفاصلة (،) بعد كلمة (في الصالة) جعل القارئ يظن أن الطائرة في الصالة، وهذا محال، وحق الفاصلة أن توضع بعد كلمة (الطائرة) ليستقيم المعنى. ومثله التعبير التالي: «وجه أمي المشقق .. أمي الغسالة يطل أمامي ينضح عرقاً ندياً ص ٦١» وهو تعبير غير موفق، فإما أن تعيد كلمة (وجه أمي) بعد كلمة الغسالة، أو تضع (أمي الغسالة) بين شرطين كجملته تفسيرية توضيحية.

وهناك أخطاء نحوية ولغوية وتركيبية، مثل: «أين صدرك يتسع له رأسي ص ٥» والصواب يتسع لرأسي، «وتحمل النوعية نفسها ص ٩» والصحيح نفسها، «ولم يترك يوماً في عيوني ص ٥٨» بالجمع والصواب الثنية (في عيني). أما في التركيب والمعنى، فهناك بعض الهنات مثل «يحمل صلبانه ص ١١» فهل للبوزي صلبان؟!، و«عمت صباحاً يا أستاذ ص ٧٧» يقولها تلاميذ صغار في القرن العشرين، وما عليها لو قالوا: «صباح الخير» مثلاً بدلاً من ذلك التعبير المخرق في القدم، وتقول «ربيبة روبرت ص ٩٢» وتقصد زوجته أو حبيبته أو خطيبته، والربيبة هي ابنة الزوجة تعيش في كنف زوج أمها، وليست زوجة أو حبيبة أو خطيبة.

أما في مجال الأفكار، فتطرح أفكاراً مهمة، منها معرفة المخابرات بدقائق حياة الناس، إلا جوعهم ومعاناتهم، فلماذا؟! ص ٨١ وسلبية الناس العاديين أمام الأحداث الجسام، لا سيما التي تمس حياتهم ومستقبلهم، تاركين المجاهدين أو أهل المبادئ لمصائرهم، فهل كان صراع هؤلاء وجهادهم لمصالحهم الشخصية، أم للوطن والجميع، فلماذا يخذلونهم ص ٨٣.

أما المنحى الإسلامي في المجموعة فهو ضعيف جداً لدرجة العدم، بل هناك ما يناقض التصور الإسلامي، فقولها: «أحببت البوزي تماماً كالمسلم أو المسيحي ص ٤١» لا يتفق مع التصور

والسبعينات وفي هذه الفترة كان القدح الممل في الفن القصصي - لا سيما عند النساء - لسيدات ثلاث هن: ليلي بعلبكي، وكوليت خوري، وغادة السمان، وهؤلاء الثلاث كنّ يمتلكن ثقافة أجنبية، مع افتتان بالغرب المادي بلغ حد الهوس، وكن يقدرن كل شيء تأتي به الريح من أقطاره، ولو كانت رياح السموم، فكن يقدرن ثقافته وأدبه تقدسياً يبلغ حد المعارضة للدين، وكل ما تعارف عليه أهل الشام من قيم، مع جرأة تبلغ حد القمة أحياناً في طرح بعض الأفكار، والمجاهرة بسلوكيات يندى لها الجبين، وكُنَّ - تحت ستار الحرية والتحديث والتطور - يُرذُنن تحذير هذه الرؤى، وتجريء الفتيات والنساء على تحطيم كل القيم، بحجة محاربة التقاليد البالية، فكان إنتاجهن مما تحجل العذارى من قراءته في خدورهن.

وساعد في انتشار هذه النماذج، سيطرة العلمانية بكل اتجاهاتها - وعلى رأسها اليسار - على وسائل الإعلام، فدفعوا بهم إلى الصدارة؛ لتحطيم الدين والقيم.

في هذا الجو المسموم كان تفتح برعم سحر ملص الأدبي، وتلك هي النماذج التي تقلدها، وتنسج على منوالها، دون انتباه منها إلى خلفية هؤلاء النسوة الدينينة، أو توجههن الفكري، وانتمائهن العقائدي (الأيديولوجي). ودون وعي منها استنشقت زفيرهن.

بهذه المقدمة عن خلفية الفترة التي تفتح فيها برعم سحر ملص الأدبي، ومكوناتها الثقافية نستطيع الولوج إلى مجموعتها «شقائق النعمان». بيد أن دخولنا عالم شقائق النعمان لا يعني أن نفق عند كل قصة، وحسبنا أن نشير إلى المكونات الأساسية للمجموعة كلها، وأظهر ما لفت نظرنا فيها.

فعلى مستوى اللغة، نجد لها، تملك لغة قصصية جيدة، ولها تعبيرات رائعة، وصور جميلة، تتغلغل في نسج قصصها كلها، مما يعجز الباحث أن يتقصاها كلها، أو يرهق القارئ في تتبعها، وحسبنا أن ندلل على قولنا ببعض هذه العبارات، فتقول: «أنا كبرت وأحلامي صغرت، انفرطت حلماً تلو الآخر ص ٧»، «سندخل كهوفاً لن يجرؤ البرق على إضاءتها ص ٢٨» «سور واحد.. وطرقاً الليل على الجدران التي كانت تنفذ عبر الزنازين ما زالت تطرق أذني، كنت أناغم الطرق بمثله، إيقاع طالبي الحرية لا يختفي عبر الزمن، يميزه حتى طفل رضيع تقيده ثيابه ص ٧٠» وصور أخرى.

بيد أن القاصة تقع في أخطاء، ربما سببها قلة التجربة، وعشرات بداية الطريق، وبعد الاختصاص - فهي صيدلانية - وهيمنة لغة الجرائد والإعلام على الناس قاطبة. فعلى مستوى الكتابة

أربع مقطوعات شعرية

شعر: أحمد محمد الصديق*

(١) عند الركن والحجر:

ضيفٌ على الله . لا ضيفٌ على البشر
كطائر حط بين الماء والشجر
أستبح الله مبهوراً بكعبته
عند المقام وركن البيت والحجر
مردداً بلسان الروح ما اعتلجت
من أضلعي من معاني الشوق والذكر
ويستثير همومي .. ما تكابده
شعوبنا من صنوف الكيد والضرر
تكالب الحقد مغروراً بسطوته
حتى غدت أمةً التوحيد في خطر
يا ربّ ندعوك والآلام تنهشنا
مُستنصرين فأدر كنّا على أثر

(*) شاعر فلسطيني، درس في الأزهر، له عدة دواوين شعرية منها: نداء الحق، الإيوان والتحدي، وقصائد للفنّانة المسلمة.

الإسلامي، بل يتقّضه من أساسه، ويمس العقيدة مساً مباشراً. وتقول: «ليلة عرسنا وخرنا ص ٧٤» فتربط الفرح بمعصية الله. وتقول: «ومن تمنح جسدها دون قلبها أو فكرها فهي عاهرة وإن أيدتها مئات الأوراق الرسمية وباركت زواجها ص ٨٦» وهذا التفكير الخاطيء نتج عن التضليل الذي يارسه تلاميذ المدارس الغربية في الفكر، المستترين خلف الحرية الشخصية.

وهذه مجرد إشارات لجناية العلمانية عليها، لكن الأمر يتضح عند بروز أربعة محاور أساسية في قصصها تجعلنا نؤكد وقوعها ضحية الفكر العلماني بكل ثقله وسلبياته، بعيداً عن زخارف القول التي يضللون بها الناس.

فالمحور الأول: عنايتها بالبوذية واهتمامها بها، حتى أفردت قصة تحمل العنوان «ليل بوذي ص ٩» ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل يتجاوز إلى الإعجاب والتأسي والاستشهاد بكلمات بوذا، انظر على سبيل المثال الصفحات ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩.

المحور الثاني: سيطرة الفكر النصراني عليها، فتعبيراتها نصرانية في كثير من المواضع قد لا نجد مثلها عند الأدباء النصارى أنفسهم، حتى الصلاة لا تكون إلا عند الخوف، ودعوات في السر، فضلاً عن تعبيرات مثل الصلب، الصليب، أشيئنة، إكليل، صاحب النيافة... إلخ وهي إشارات كثيراً جداً، ومتغلغة في نسجها اللغوي، لا في مواقف متعلقة بالنصارى حتى نجد لها مبرراً أو عذراً.

المحور الثالث: التعامل مع الفكر الوثني على أنه ثقافة راقية تستحق الاهتمام والفخر بلبس لباسها، فالآلهة عندها متعددة، (آلهة العجز ص ٢١) (آلهة الحب ص ٢٦) (آلهة الصدق ص ٥٠) (آلهة الخلود ص ٧٤) (آلهة الخصب ص ٨٤) (آلهة الصمت ص ٩٠) فلكل شيء عندها إله، ولكل إحساس إله، ولكل هم إله، ولكل سرور إله!! هذا فضلاً عن التعبيرات الأخرى التي تصب في المجرى نفسه مثل: «صليت لسمائي شاكرة سخاءها حيث جمعتني بك ص ٤٢».

المحور الرابع: الجراءة في طرح الجنس بصور وكلمات وتلميحات وتصريحات تجاوزت العشرين مرة تقريباً، على طول المجموعة، مما يعيد للذاكرة تأثير مدرسة نوال سعداوي وضربياتها وأثرهن في جيل الستينات والسبعينات.

ونحن نأمل أن تتجاوز القاصة هذه المزالق الخطرة، لتعطي الناس أدباً راقياً يليق بها كعربية مسلمة واعية تتحرق شوقاً لعالم الطهر والورع والإنابة.

واجمع على عزة الإسلام وحدتنا

لكي تخلق فيها راية الظفر

(٢) أو ما تراني كادحاً؟

رَدَدَ أذان الفجر واهتف

بـالهدى ملء الفم

وانهض إلى غاياتك الكبرى

بـعزم مبرم

أيقظ ضمير الكون واصدع

بـالنشيد الملهم

واكتب على وجهه الضحي

قد جاء دور المسلم

صافحته متلطفاً .. فإذا به

حشن اليدين مُعَفِّر الأهداب

وعلى الملامح قسوة لكنها

نضرت بلين الطبع والآداب

من أنت؟ .. تسألني وهل يخفى علي

أحد، وإن أخفيت عنه جوابي

أو ما تراني كادحاً في لقمتي

عرق السجين أضاء سود ثيابي

وعطاء ربك سابغ وبشكره

يزداد فضل المنعم الوهاب

وعرفت ما تعني القناعة والرضا

رغم الضنى ومرارة الأوصاب

وذكرت ما فعل النبي بمثله

فغمرته بالحُبِّ والإعجاب

(٤) سيف الجهاد

سيف الجهاد ليوم الحشر بتار

وغضبة الحق في الميدان إعصار

الله أكبر إذ دوت مجلجلة

فالكفر من وقعها المرهوب منهار

الله أكبر - صوت الرعد مقتبس

منها .. وومض سناها النور والنار

إذا استقامت على الخذلان أوسمة

هبت تدود عن الأوطان أحجار

وإن تخلى كبار القوم عن حُرْم

فما تخلى صغار يوم أن ثاروا

«فداؤك الروح يا أقصى» يرددها

في كل يوم ميامين وأطهار

وكم تتوق إلى جناتها مهج

كما يحن إلى المحراب أبرار

(٣) على وجه الضحي

أشباب .. يا لهباً تفجر

في حنايا الأنجم

يا صولة الحق الجسور

على العدو والمجرم

يا صيحة الثار المزجر

في براكين الدم